

تأثير كلود ليفي ستروس في الدراسات الأنثروبولوجية المعاصرة
*Claude Lévi Strauss' influence on contemporary
anthropological studies*

أ.د. دحماني سليمان*
جامعة مولود معمري (الجزائر)
slimane.dahmani@ummtto.dz

تاريخ الاستلام: 2022/04/02 تاريخ القبول: 2022/10/27

الملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى تبين تأثير الفيلسوف وعالم الأنثروبولوجيا الفرنسي كلود ليفي ستروس في الدراسات الأنثروبولوجية المعاصرة في العالم الغربي، وذلك من خلال تسليط الضوء على أهم علماء الأنثروبولوجيا الذين تأثروا بالمنهج البنيوي وحاولوا الاعتماد عليه في دراساتهم الأنثروبولوجية. وفي هذا الصدد تمت الإشارة في هذا المقال إلى أعمال كل من لويس ديمون، وبير بورديو، وموريس غودلييه، وبير كلاستر، وفراسواز ايريتيه في فرنسا؛ وإدموند ليتش، وماري دوغلاس، ونور يلمان، ورودني نيدم في بريطانيا؛ وكليفورد جيرتز، ومارشال سالينز في الولايات المتحدة الأمريكية. **كلمات مفتاحية:** كلود ليفي ستروس؛ الأنثروبولوجيا؛ البنيوية؛ الاتجاهات النظرية؛ التأثير العلمي.

Abstract:

In this research paper, we will try to show the influence of the french philosopher and anthropologist Claude Lévi-Strauss in contemporary anthropological studies in the western world, by highlighting the most important anthropologists who were influenced by the structural method and tried to rely on it in their anthropological studies.

In this context, references are made in this article to the works of Louis Dumon, Pierre Bordieu, Maurice Godelier, Pierre Clastres and Françoise Héritier in France, Edmund Leach, Mary Duglas, Nur Yalman and Rodney Needham in Britain, Clifford Geertz and Marshall Sahlins in the United States of America.

Keywords: Claude Lévi-Strauss; Anthropology; Structuralism ; Theoretical trends; Scientific influence.

1. مقدمة:

ظلت الأنثروبولوجيا الفرنسية مرتبطة ببعض الشخصيات البارزة، مثل إميل دوركايم (Émil Durkheim)، ومارسيل موس (Macel Mauss)، ولوسيان ليفي برون (Lucien Lévi-Bruhl)، وبول ريفي (Paule Rivet)، ومارسيل غريول (Marcel Griaule)... إلخ، ولم تتمكن من تأسيس اتجاه نظري معين أو مدرسة فكرية واضحة المعالم، لذلك لم تستطع بلورة هوية منهجية خاصة بها على غرار مدارس أنثروبولوجية غربية أخرى، كالمدرسة البريطانية الوظيفية، والمدرسة الألمانية الانتشارية، والمدرسة الأمريكية الثقافية، وكان يجب انتظار حتى تضع الحرب العالمية الأولى أوزارها، لتظهر الأنثروبولوجيا الفرنسية وقد تحددت هويتها مع البنيوية (Structuralisme)، التي اتخذت من المجتمعات البسيطة مجالاً لدراساتها، ومن الفكر الرمزي موضوعاً مفضلاً لديها، ومن التحليل البنيوي منهجاً لمقاربة الموضوعات التي تناولتها، ومن البحث عن الثوابت التي تحكم مختلف الثقافات الإنسانية أجندةً تأطر عملها الأكاديمي، بصورة عامة.

وما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن البنيوية كحركة فكرية، لم تقتصر على حقل واحد من حقول المعرفة، بل تعدته لتشمل الفلسفة مع ميشيل فوكو (Michel Foucault)، وجاك دريدا (Jacques Derrida)، وعلم النفس مع جاك لاكان (Jacques Lacan)، واللسانيات مع رومان جاكوبسون (Roman Jakobson)، والسيميولوجيا (علم العلامات) مع رولاند بارت (Roland Barthes)، والأنثروبولوجيا مع كلود ليفي ستروس (Claude Lévi-Strauss)؛ وفي هذا الحقل المعرفي بالذات، لم تمارس بنيوية ليفي ستروس تأثيراً في الأنثروبولوجيا الفرنسية فحسب، بل أثرت في مدارس أنثروبولوجية غربية أخرى، وذلك من خلال تفاعل علماء الأنثروبولوجيا مع أفكار وآراء ليفي ستروس في فرنسا وخارجها، واقتناعهم بضرورة إعادة النظر في دراساتهم الأنثروبولوجية على الصعيد النظري والتطبيقي.

وتأسيساً على ما سبق، سنحاول الإجابة من خلال هذا المقال عن السؤال المركزي الآتي: كيف أثرت بنيوية ليفي ستروس في الدراسات الأنثروبولوجية المعاصرة في فرنسا، وبريطانيا، والولايات المتحدة الأمريكية؟

2. نشأته وتكوينه الأكاديمي

ولد كلود ليفي ستروس في بروكسل (Bruxelles) يوم السبت 28 نوفمبر 1908 م، ونشأ في أحضان أسرة يهودية، فجده كان حاخاماً (أي زعيماً دينياً)، كما عُرفت هذه الأسرة بحبها للثقافة، والآداب، والفنون كالموسيقى والرسم، وهذا ما انعكس بصورة إيجابية على مستقبله التعليمي لاحقاً.

انتقل ليفي ستروس خلال الحرب العالمية الأولى مع أبويه إلى فرساي مدينة (Versailles)، وفي الفترة الممتدة بين عامي 1927 و1931 م كان طالباً في جامعة باريس التي تحصل منها على الإجازة في الحقوق، وشهادة الأستاذية في الفلسفة عام 1931 م، وبعد تخرجه درّس فترة وجيزة في الثانوية، إذ سرعان ما انتقل إلى البرازيل عام 1934 م، حيث عين أستاذاً لعلم الاجتماع في جامعة ساو باولو (São Paulo)، فكان هذا التعيين بالنسبة إليه فرصة سانحة للقيام بدراساته الميدانية في وسط البرازيل، ثم تحصل على منحة من الحكومة الفرنسية لتوسيع نشاطه البحثي بين الأهالي في تلك المنطقة.

رجع ليفي ستروس إلى فرنسا عام 1940 م لتأدية الخدمة العسكرية لكنه نجح بعد هدنة في نفس العام من مغادرتها متوجهاً إلى نيويورك في الولايات المتحدة الأمريكية- في إطار مشروع روكفيلر (Rockefeller) لحماية العلماء اليهود من خطر النازية، إثر سقوط باريس عام 1941

م- حيث عمل في الكلية الجديدة للبحث الاجتماعي عام 1943 م، ولقد تمكن خلال إقامته في نيويورك من تحرير أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه حول البنى الأولية للقرابة، كما تمكن من لقاء أشهر علماء الأنثروبولوجيا الأمريكان، وتعرف في هذه الأثناء إلى صديقه رومان جاكوبسن الذي قاده إلى الاهتمام بعلم اللغويات البنيوي.

و"عاد ليفي ستروس إلى باريس عام 1945 م ليعمل مديراً للعلاقات الثقافية لمدة عام واحد ثم عاد مرة أخرى إلى نيويورك للعمل ملحقاً ثقافياً في البعثة الدبلوماسية الفرنسية حتى عام 1947 م⁽¹⁾. ولقد تم تعيينه نائباً لرئيس متحف الإنسان (musée de l'Homme) عام 1949 م، وفي ذات العام أصبح مدير الدروس في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا (École Pratique des Hautes Études)، وأستاذاً للديانات المقارنة للشعوب التي لا تعرف الكتابة، ولعل من أرفع المناصب التي تقلدها ليفي ستروس في فرنسا، منصب "أستاذ لكرسي الأنثروبولوجيا الاجتماعية" في الكوليج دو فرانس (Collège de France)، وذلك بداية من عام 1959 إلى غاية 1982 م (تاريخ تقاعده)، كما أشرف في نفس الفترة على مخبر الأنثروبولوجيا الاجتماعية، الذي أسسه في عام 1960 م.

ولقد وُشِّح ليفي ستروس بوسام جوقة الشرف الوطني (Ordre national de la légion d'honneur) عام 1949 م، كما أنه أنتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية عام 1973 م، وتمكن قبل وفاته في باريس في يوم الجمعة 30 أكتوبر 2009 م من نشر العديد من الكتب، أهمها ما يلي:

- الحياة الأسرية والاجتماعية لهنود النامبيموارا (La Vie familiale et sociale des indiens Nambikwara) عام 1948 م.

- البنى الأولية للقرابة (Les structures élémentaires de la parenté) عام 1949 م.

- العرق والتاريخ (Race et Culture) عام 1952 م.

- مداريات حزينة (Tristes Tropiques) عام 1955 م.

- الأنثروبولوجيا البنيوية (Anthropologie structurale) (الجزء الأول) عام 1958 م.

- الطوطمية اليوم (Le Totémisme aujourd'hui) عام 1962 م.

- الفكر البري (La Pensée sauvage) في نفس العام.

- النيء والمطبوخ (Le Cru et le Cuit) عام 1964 م.

- من العسل إلى الرماد (Du miel aux cendres) عام 1966 م.

- أصل آداب المائدة (L'Origine des manières de table) عام 1968 م.

- الإنسان العاري (L'Homme nu) عام 1971 م.

- الأنثروبولوجيا البنيوية (الجزء الثاني) عام 1973 م.

- الأسطورة والمعنى (Myth and Meaning) عام 1978 م.

- طريق الأقنعة (La Voie des masques) عام 1979 م.

- الخزافة الغيرة (La Potière jalouse) عام 1985 م.

- من قريب ومن بعيد (De près et de loin) عام 1988 م.

- تاريخ الوشق (Histoire de Lynx) عام 1991 م.

- ينظر يقرأ يسمع (Regarder écouter lire) عام 1993 م.

- الأنثروبولوجيا في مواجهة مشاكل العالم الحديث (L'Anthropologie face aux problèmes du monde moderne) 2011 م... إلخ.

ولقد عُذَّ لفي ستروس نظير هذه الأعمال من كبار المفكرين الأوروبيين في العصر الحديث، ولقب بعميد أو شيخ البنيويين، وأشتهر لاسيما بمنهجه البنيوي الذي استعمله في دراسة موضوعات مثل القرابة، والأساطير، والفكر الرمزي بصفة عامة، بعدما انتقل من الفلسفة إلى الأنثروبولوجيا.

3. منهجيته في البحث الأنثروبولوجي

لقد تنبه لفي ستروس إلى التماثل الموجود بين اللغة والثقافة، وبالتالي تشابه كل من علم اللغة والأنثروبولوجيا، وأشار إلى ذلك في مؤلفه الموسوم بـ: "الأنثروبولوجيا البنيوية"، بقوله: "يحتل علم اللغة مكانا ممتازا في مجال العلوم الاجتماعية التي ينتمي إليها بلا ريب: فهو ليس علما اجتماعيا كالعلوم الأخرى، بل العلم الذي قام بأعظم الإنجازات، وتوصل إلى صياغة منهج وضعي، ومعرفة الوقائع الخاضعة إلى تحليله في وقت واحد، وهو الوحيد بلا ريب الذي يستطيع المطالبة باسم علم (...) إن تشابه المنهج الشديد بين العلمين [علم اللغة والأنثروبولوجيا] يفرض عليهما واجبا خاصا في التعاون" (1).

وفي السياق ذاته، عبّر لفي ستروس عن إعجابه الشديد بعلم اللغة، والإنجازات التي حققها مقارنة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية الأخرى، بقوله: "إننا نجد أنفسنا نحن الأنثروبولوجيين في وضع حرج بإزاء الألسنيين، فقد اشتغلنا معهم طيلة سنوات عديدة، جنبًا إلى جنب، ثم بدا لنا فجأة أن الألسنيين أخذوا يتملصون منا، فرأيناهم ينتقلون إلى الجهة الأخرى من الحاجز الذي يفصل العلوم الدقيقة والطبيعية عن العلوم الإنسانية والاجتماعية، والذي اعتقدنا زمانا طويلا أن عبوره أمر متعذر. وكما لو أنهم أرادوا نكايتنا، فقد راحوا ينكبون على العمل بتلك الصورة الصارمة الحازمة التي كنا قد استسلمنا لأمر اعتقادنا بأنها من شيم العلوم الطبيعية وحدها (...) إننا نريد أن نتعلم من الألسنيين سر نجاحهم. ألا يسعنا نحن أيضا أن نطبق على هذا الحقل المعقد الذي تدور فيه أبحاثنا-القرابة، التنظيم الاجتماعي، الدين، الفولكلور، الفن- تلك المناهج الصارمة التي تبرهن الألسنية كل يوم عن فاعليتها" (2)؟

ولقد بدا بشكل واضح تأثر لفي ستروس بمنهج الدراسات اللغوية، ومحاولته توظيفها في البحث الأنثروبولوجي، لاسيما المنهج الفونولوجي، أي بحث العناصر الصوتية للسان، في دراسة نظام القرابة، إذ نجده يقول في نهاية كتاب البنى الأولية للقرابة ما يلي: "لقد لاحظنا أن قواعد

1- كلود ليفي ستروس-الأنثروبولوجيا البنيوية-تر: مصطفى صالح -وزارة الثقافة والإرشاد القومي-دمشق- 1988-ص 49.

2- ليوناد جاكسون- بؤس البنيوية- تر: تائر ديب-دار الفرقد الطباعة والنشر والتوزيع-دمشق- 2008-ص 127-128.

معقدة واعتباطية في الظاهر يمكن أن تختصر في عدد صغير: ليس هناك إلا ثلاث بنى قرابة ممكنة تتشكل بمساعدة موضوعي "تبادل يتعلقان بطابع مفارقة وحيد، وهو الطابع المتطابق أو المتفاوت للنظام المدروس". إنها تبين بمجملها المكان المركزي للتبادل الزوجي الذي من جهة يتضمن منع سفاح القرى الذي هو وجهه الإيجابي، ومن جهة أخرى يؤسس القرابة على النسب. زيادة على ذلك، تردنا هذه البنى إلى حقائق فكرية شاملة: اقتضاء القاعدة كقاعدة، فكرة التعاكس، والطابع الرمزي للأعطية" (1).

كما اعتمد ليفي ستروس على المناهج اللغوية في دراسة الأساطير، من خلال الأربعة أجزاء التي نشرها في الفترة الممتدة من عام 1964 إلى غاية 1971 م، وهي: النبيء والمطبوخ؛ من العسل إلى الرماد؛ أصل آداب المائدة؛ الإنسان العاري؛ "وفي الخمسينات، أحدث ليفي ستروس، كما كان قد فعل منذ عشرة أعوام قبلها بالنسبة إلى القرابة، انقلاباً جذرياً في الدراسات الميثولوجية، مستنداً على مكتسبات الألسنية البنيوية: [وأكد أنه] من العبث البحث عن دلالة للقصة الأسطورية بما أنها لا تملك دلالة لها وحدها؛ إنها لا تتخذ (أو لا تنتج) معنى إلا بالنسبة إلى نظام "البنى الأسطورية" الذي تنتمي إليه (وتشارك فيه) (...) ويكمن مبدأ التحليل البنيوي في تلك الترددات الدائمة بين هذه البنى الفكرية ومختلف إنجازاتها القصصية وسياقها الإثنوغرافي، أي الموضع الطبيعي والاجتماعي الذي تقوم وظيفة الأساطير على إظهاره؛ بما أن الاختيار الأساسي يقوم بشكل نهائي على إمكانية وجود هذه البنى في فكر السكان الأصليين وكذلك في فكرنا. في الحال يبرز، بشكله المتكامل، البناء المنطقي للأسطورة (أو لمجموعة أساطير) ودلالاتها" (2).

وعموماً، تنطلق بنيوية ليفي ستروس على غرار الماركسية والبنائية الوظيفية، من الفكرة العامة القائلة أن مفهوم البنية (Structure) يعد مدخلاً أساسياً لدراسة المجتمع، كنسق متكامل يتكون من أجزاء مترابطة. غير أن هذه البنية (حسب ليفي ستروس) لا يمكن اختزالها في مجرد العلاقات الاجتماعية، لأن هذه الأخيرة لا تعبر تعبيراً مباشراً عن البنية الاجتماعية، كما يرى أصحاب الاتجاه البنائي الوظيفي، وفي هذا الصدد نجد ليفي ستروس يقول في كتابه الأنثروبولوجيا البنيوية: "إن العلاقات الاجتماعية هي المادة الأولى المستعملة في صياغة نماذج توضح البنية الاجتماعية إذا، لا يمكن بأية حال إرجاع هذه البنية إلى مجمل العلاقات الاجتماعية التي تتسنى ملاحظتها في مجتمع معين" (3).

وبناء عليه، فإن البنية الاجتماعية لا يمكن ملاحظتها بشكل مباشر، ولذلك ينبغي تحليل العلاقات المرئية أولاً ثم الانتقال إلى واقعها العميق والخفي، وعلى هذا الأساس يتلخص منهج ليفي ستروس في البحث عن البنى التي لا يمكن أن تدرك من خلال الدراسة الميدانية، "فالأمر لا يقتصر عنده عند حد البنى التي كان يبحث عنها أصحاب الاتجاه البنائي الوظيفي، فالبنية حسب ليفي ستروس نسق (model) بمعنى بناء فكري نظري مجرد يبلور انطلاقاً من معطيات ميدانية. فالواقع الاجتماعي الحقيقي ليس هو ما نرى أمام أعيننا ملموساً، ما هو ملحوظ مجرد مظهر خاطئ وهم للواقع (illusion de la réalité) (...) يجب البحث عن الممارسات الاجتماعية في البنيات اللاواعية والأنساق الخفية" (4). ولا شك أن ليفي ستروس استطاع بهذا أن يحقق قطيعة إبستمولوجية مع الاتجاهات والمدارس النظرية التي كانت سائدة في الأنثروبولوجيا، كالتطورية، والانتشارية، والثقافية، والوظيفية.

1- بيار بونت وميشال إيزار-معجم الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا-ترجمة مصباح الصمد -المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع-بيروت-2006-ص 783.

2- نفس المرجع، ص 71.

3- كلود ليفي ستروس-مرجع سبق ذكره-ص 327.

4- رحال بويريك-مدخل إلى الأنثروبولوجيا -دار أبي رقرق للطباعة والنشر-الرباط-2014-ص 93-94.

4. ليفي ستروس والأنثروبولوجيا الفرنسية

عُرِفَت الأنثروبولوجيا في فرنسا باسم الإثنوغرافيا والإثنولوجيا (Ethnographie/Ethnologie) وكانت تُدرّس في أقسام علم الاجتماع، ولقد كان لأفكار إميل دوركايم ومارسيل موس تأثيرا واسعا في هذا المجال، غير أننا نلاحظ غياب هذا التأثير لاحقا ولاسيما بين الحريين العالميتين، حيث ظهرت اتجاهين أساسيين في فرنسا هما الماركسية والبنوية، وكان مترجم الاتجاه الأخير هو ليفي ستروس بلا منازع، كما يعود إليه الفضل في إرساء قواعد الأنثروبولوجيا الاجتماعية، من خلال توليه التدريس بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا بباريس ثم الكوليج دوفرانس، وتأسيسه لمختبر الأنثروبولوجيا الاجتماعية بالمعهد الوطني للبحوث العلمية (CNRS)، وإشرافه على مجلة الإنسان (L'homme)، ومجلة دراسات ريفية (Etudes rurales).

ونوه بالقول هنا، إلى أن ليفي ستروس كان من علماء الأنثروبولوجيا الفرنسية الذين تأثروا في البداية بأفكار دوركايم وموس، المتعلقة بمفهومي البناء الاجتماعي، والتنظيم الاجتماعي، كما مارس هو ذاته تأثيرا في بعض علماء الأنثروبولوجيا في فرنسا، وعلى رأسهم لويس ديمون (Louis Dumont) "الذي يظهر بشكل واضح أنه سار على خطى ليفي ستروس والبنى الأولية للقرابة متابعا لأبحاثه عن القرابة والنسب في الهند. وبالرغم من تبني ديمون منهجا بنويا في تجربته البحثية في جنوب الهند، إلا أنه طور هذا المنهج، حيث قدم وضعية نظرية لفكرة "العلاقة التراتبية" التي استخلصها في البدء من دراسته لنظام الطوائف محلا أياها على ضوء فرضيات إيدولوجيا المساواة. اقترحت [أي الوضعية النظرية التي قدمها ديمون] العلاقة التراتبية كتعبير مؤلف للرابط الاجتماعي القابل لتخطي الإزدواجية الموروثة عن الألسنية البنوية والثنائية التصنيفية، إلا أنها تظهر تساميا في قلب الحياة الاجتماعية. ويبين توضيح تلك العلاقة أن كل نظام إنما هو مبني على مبدأ خارج عنه" (1).

كما شمل هذا التأثير أيضا بيير بورديو (Pierre Bourdieu) الذي كان شاهدا على ذلك السجال الذي عرفته الساحة الفكرية الفرنسية بين زعيم البنوية ليفي ستروس، وزعيم الوجودية جان بول سارتر (Jean-Paul Sartre) (2). وتجدر الإشارة إلى أن مصادر التأثير في فكر بورديو قد تفاوتت، "فقد ترك دوركايم تأثيره فيه إلى حد ما، على الأقل في الجانب المتعلق بالجانب بالاحتمالات الاجتماعية، أما موس وستروس فقد اتضح تأثيرهما من خلال الاتجاه البنوي في إعادة إنتاج نفسيهما، على أن آراء بورديو تميزت عن غيرها من الآراء، خصوصا تلك المستندة إلى الرؤية الحتمية، سواء لدى دوركايم وموس وستروس، بإقراره بدور الفرد بصفته فاعلا اجتماعيا في إعادة تأكيد النظم الرمزية، وذلك من خلال البنى الاجتماعية، كان يرى أن هذه البنى تعيد إنتاج نفسها، وهي وإن كانت تقوم بذلك فإنها لا تقوم به وفقا لأسس المنطق الوظيفي" (3). ولقد استطاع بورديو إنشاء ما يعرف بالبنوية التكوينية أو البنوية التركيبية، انطلاقا من ثلاثة مفاهيم هي: نسق المواقف، والهياكل، وإعادة الإنتاج.

أما موريس غودلييه (Maurice Godelier) وهو من الماركسيين الجدد، فتأثر بمنهج ليفي ستروس البنوي-لاسيما أنه تعرف عليه من كُتِب، إذ عمل معه كأستاذ مساعد في الكوليج دو فرونس-وحاول دمج هذا المنهج في مقارنة ماركسية، وعلى هذا الأساس توصل إلى نقد المقاربات الشكلانية، والمقاربات الجوهرانية في مجال الأنثروبولوجيا الاقتصادية.

وعلى العموم، يمكن القول، "كان أساس محاولة غودلييه في إيجاد نوع من المصالحة بين البنوية والماركسية يكمن في التشابهات، التي أحس بها بينهما. وكان أحد الاهتمامات الواضحة بين الإثنين يكمن في الجدلية كشكل يمهد لكل من الحجج والقيام بالتحليل. ولكن هناك

1- يار بونت وميشال إيزار-مرجع سبق ذكره-ص481.

2- راجع بهذا الخصوص: عبد الله جعفر-البنوية في الأنثروبولوجيا وموقف سارتر منها-القاهرة-دار المعارف-1970.

3- عبد الله عبد الرحمن يتييم-"بيير بورديو أنثروبولوجيا"-إضافات: المجلة العربية لعلم الاجتماع-العدد 14-بيروت-2011-ص50.

أيضا اهتمام مواز في التحولات وهو شيء أكد عليه ليفي ستروس بالذات في دراساته المقارنة للأسطورة، وارتبطت هذه التحولات ببنية كامنة، سواء كانت في شكل التفكير كما هو الحال عند ليفي ستروس أم في أساليب الإنتاج كما هو الحال عند ماركس⁽¹⁾.

وفي ذات الإطار نجد عالم الأنثروبولوجيا بيير كلاستر (Pierre Clastres) الذي بدأ بدراسة الأنثروبولوجيا كطالب لدى ليفي ستروس عام 1956 م، كما عمل معه في مخبر الأنثروبولوجيا الاجتماعية التابع للمركز الوطني للبحث العلمي خلال ستينات القرن الماضي، ولقد سبق له أن تتلمذ على يد ألفرد مترو (Alfred Métraux) في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا في عام 1959 م.

ولقد عُرف كلاستر باسهاماته في حقل الأنثروبولوجيا السياسية، من خلاله عمله الإثنوغرافي بين شعب الغواياكي (Guayaki) في البراغواي، واهتم في مؤلفه: "المجتمع ضد الدولة" (La société contre l'état) بإشكالية السلطة السياسية في المجتمعات البسيطة، "فهو يرى أن انعدام السلطة القسرية لدى المجتمعات الهندية، وعدم توفر زعيم القبيلة على سلطة الردع مرتبط بمسألة التبادل. فقضية الزعامة هذه ليست إلا وجهها من أوجه التبادل بين الزعيم وأعضاء القبيلة مما يضمن التوازن بين المؤسسة السياسية والبنية الاجتماعية"⁽²⁾ وهذا ما يدل على أنه كان متأثرا بفكرة التبادل لدى ليفي ستروس، كما كان متأثرا به في اختياره لمجتمع ينتمي إلى المجتمعات البسيطة المنتشرة في أمريكية الجنوبية لإجراء دراساته الإثنوغرافية.

كما نلمس ذات التأثير لدى عالمة الأنثروبولوجيا، والمفكرة المناضلة النسائية، فراسواز ايريتيه (Françoise Héritier) -التي خلفته على رأس الكوليج دو فرانس بين عامي 1982 و1998 م- لاسيما من خلال أعمالها المنجزة حول القرابة والمصاهرة في إفريقيا، والتي تعد امتدادا لما جاء به ليفي ستروس من أفكار في كتابه المرجعي: "البنى الأوية للقرابة".

ولكن ايريتيه "لم تتوقف عند مفهوم التبادل لدى ليفي ستروس بل تساءلت مثلا لماذا تبادل النساء يتحكم فيه الرجال عبر التاريخ؟ لماذا ينحصر دور الإشراف على تبادل ودوران النساء والإنجاب على الرجال؟ [وللإجابة على هذه الأسئلة] انطلقت ايريتيه من العلاقة التراتبية الهرمية بين الرجل والمرأة القائم على الفروق الفيزيولوجية الظاهرة، والتي تجعل المرأة في وضعية دنيا مقارنة مع الذكر. فالتعارض (Opposition) بين الذكر والأنثى هو الذي هيكل وحدد فكر الإنسانية"⁽³⁾، على حد قولها.

5. ليفي ستروس والأنثروبولوجيا البريطانية

وإذا انتقلنا من فرنسا إلى بريطانيا نجد استخدام مصطلح "أنثروبولوجيا اجتماعية" (Social Anthropology)، وتختص هذه الأخيرة بدراسة النظم الاجتماعية المختلفة، كنظام القرابة، والنظام السياسي، والنظام الاقتصادي، والنظام الديني... إلخ، ودراسة العلاقات الموجودة بين هذه النظم، من خلال الاعتماد على الدراسة العقلية لتجميع المادة العلمية، أي أن يعيش الباحث الأنثروبولوجي، في المجتمع الذي يدرسه، ويقطع اتصاله بالعالم الخارجي، ويحصر اهتمامه بالجماعة التي يدرسها.

ويعد برونيسلاف كاسبار مالينوفسكي (Bronislaw Kaspar Malinowski) أول علماء الأنثروبولوجيا الذين استخدموا هذا المنهج، بل كان أول من وضع أسسه ووضح كيفية تطبيقه ميدانياً، في كتابه حول قبائل الأرغكونو في المحيط الهادي، الصادر في عام 1922 م؛ إلى

1- فريدريك بارث وآخرون- الأنثروبولوجيا: حقل علمي واحد وأربع مدارس- تر: أبو بكر باقادر وإيمان لوكيلي- المركز العربي للأبحاث- بيروت- 2017- ص 333.

2- خليل السعداني- "أمريكا والمسار الفكري لليفى ستروس من خلال كتاب مدارات حزنه"- تنسيق محمد حبيدة- الأنثروبولوجيا من النبوية إلى التأويلية- الدار البيضاء- أفريقيا الشرق- 2014- ص 38.

3- رحال بوبريك، مرجع سبق ذكره، ص 138.

جانب ألفرد راد كليف براون (Alfred Radcliffe-Brown) الذي نشر بحثه الأنثروبولوجي حول سكان جزر الأندمان (The Andaman Islanders) في نفس العام. ويعتبر مالفينوسكي وراد كليف براون أحسن من مثّل الاتجاه البنائي الوظيفي الذي ركز على مفهوم البناء الاجتماعي في مجال الأنثروبولوجيا البريطانية.

ولقد عرفت الأنثروبولوجيا الاجتماعية عصرها الذهبي في بريطانيا بعدما تزعم ريمون فرث (Raymond Firth) الدراسات الأنثروبولوجية في مدرسة لندن، وانتخب إدوارد إفان إيفانس بريتشارد (Edwad Evan Evans-Pritchard) على رأس الأنثروبولوجيا في جامعة أكسفورد، وانتخب لذات المنصب ماكس غلوكمان (Max Glukman) في جامعة مانشيستر، وماير فورتس (Meyer Fortes) في جامعة كامبردج، وانضم إلى هذه النخبة من العلماء-الذين تميزوا بأبحاثهم الأنثروبولوجية المؤسّسة-إدموند ليتش (Edmund Leach).

ويعد هذا الأخير (أي ليتش) من أولئك العلماء الذين تأثروا ببنوية كلود ليفي ستراوس ووضعها موضع الاختبار من خلال أبحاثهم الميدانية في كل من آسيا وإفريقيا، "وعلى الرغم من أن ليتش تدرب على نظرية مالفينوسكي الوظيفية فإنه في وقت لاحق من مساره المهني وقع تحت تأثير كلود ليفي ستراوس ونظريته البنوية، وعمل على إقناع الأنثروبولوجيين البريطانيين لإعادة النظر في أعمال ليفي ستراوس⁽¹⁾، ولاسيما من خلال كتابه "إعادة النظر في الأنثروبولوجيا" (Rethinking Anthropology)، الذي نشر عام 1961 م، وكتابه الموسوم بـ: "ليفى ستراوس" (Lévi-Strauss) الذي ظهر عام 1970 م. كما تبنى هو ذاته منهجا بنويا في كتابه "تأويلات بنوية للأسطورة الإنجليزية".

وتجدر الإشارة إلى أنه "بالرغم من التأثير الذي مارسه ليفي ستراوس في ليتش، فإن هذا الأخير حاول المزج بين البنوية الفرنسية والاتجاه البنائي الوظيفي البريطاني، وتباينت أفكاره وأفكار ليفي ستراوس حول العديد من القضايا، فلم يهتم مثل ليفي ستراوس بالبحث عن المبادئ العقلية الخفية التي تحكم القرابة والزواج التي يجسدها في مبدأ تجنب الزنا بالمحارم والمبادلة (...). ولم يعتبر الأساطير كشيء في حد ذاته، وفي هذا الصدد قد تأثر ليتش بمالفينوسكي في تأكيده على ارتباط الأسطورة بالواقع الاجتماعي، وكذلك اعتباره الأساطير والشعائر جانبين لشيء واحد، فمثلما تعبر الشعائر عن صورة الأفعال، فإن الأساطير تعبر عن أفكار كل جماعة ترويه"⁽²⁾، ولهذا السبب فإن ليتش يختلف عن ليفي ستراوس الذي يفصل الأسطورة عن سياقها الاجتماعي الذي انبثقت عنه.

ومن بين علماء الأنثروبولوجيا الذين تأثروا بمواقف ليتش تجاه بنوية ليفي ستراوس، ماري دوغلاس (Mary Douglas)، ونور يلمان (Nur Yalman)، ورودني نيدم (Rodney Needham). ويرى الباحث الأنثروبولوجي البحريني عبد الله عبد الرحمن يتيم، أن "كتابات هؤلاء العلماء، قد عالجت من خلال مفاهيم ومقولات البنوية (كالرموز، والمعنى، والبنية، واللاشعور) موضوعات مثل: نظام المحرمات، والمعتقدات الدينية، والتمايز الاجتماعي، واللغة، والاتصال، والإنسان وعلاقته بالطبيعة، والشواذ. وكذلك موضوعات ذات علاقة بالجنس من حيث الذكورة والأنوثة. وكان الهدف الأسمى لهذه الكتابات (...) الكشف عن معاني جديدة لمظاهر السلوك والثقافة لا يمكن الكشف عنها بالملاحظة المباشرة للعلاقات الاجتماعية لما كانت تسميه البنائية-الوظيفية بالبناء الاجتماعي"⁽³⁾.

6. ليفي ستراوس والأنثروبولوجيا الأمريكية

1- كليفورد غيرتس-تأويل الثقافات-تر: محمد بدوي -المنظمة العربية للترجمة-بيروت-2008-ص 32.

2- ربيع الكردي-البنائية الجديدة في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا -مصر العربية للنشر والتوزيع -القاهرة- 2011-ص 10.

3- عبد الله عبد الرحمن يتيم-كلود ليفي ستراوس: قراءة في الفكر الأنثروبولوجي المعاصر -بيت القرآن-البحرين-1998-ص 67-68.

يُستخدم مصطلح "أنثروبولوجيا" في الولايات المتحدة الأمريكية عادة ليدل على دراسة الإنسان من الناحيتين الجسمية والثقافية، وتضم الأنثروبولوجيا -حسب التقليد الأمريكي- طريقاً واسعاً من التخصصات العلمية هي: الأنثروبولوجيا الفيزيائية التي تختص في دراسة الجانب العضوي البيولوجي للإنسان؛ والأنثروبولوجيا الثقافية التي تدرس النواحي الاجتماعية والثقافية للمجتمعات البشرية؛ وعلم الآثار الذي يُعنى بدراسة بقايا حضارات ما قبل التاريخ؛ وعلم اللغويات الذي يحاول دراسة لغات الشعوب البسيطة، ودراسة اللهجات المحلية، والعلاقة التي تربط بين اللغة والثقافة؛ علاوة على الإثنوغرافيا أي الدراسة الوصفية لعناصر الثقافة المادية واللامادية في مجتمع معين وفي فترة زمنية محددة؛ والإثنولوجيا التي تمثل الدراسة المقارنة للمادة العلمية التي قام بجمعها عالم الإثنوغرافيا.

وقبل تبين تأثير ليفي ستروس في الأنثروبولوجيا الأمريكية ذات الصبغة الثقافية، تجدر الإشارة إلى أنه هو نفسه قد تلقى تأثير الأنثروبولوجيا الأمريكية خلال فترة تواجده في البرازيل ثم في الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك من خلال اتصاله بأهم الرواد هناك، "وفي طليعتهم فرانز بواس [Franz Boas]، ألفرد لويس كروبر [Alfred Louis Kroeber]، وروبرت لوي [Robert Lowie]، وهؤلاء هم الباحثون الثلاثة الذين ذكرهم ليفي ستروس بالاسم في مؤلفه [مدارات حزينة]"⁽¹⁾، ومشاركته هؤلاء في بعض الاهتمامات كموضوع النسبية الثقافية، وموضوع تأثير الثقافة في شخصية الفرد.

وإذا كانت القرابة عند ليفي ستروس هو الموضوع الذي حظي باهتمام كبير من طرف علماء الأنثروبولوجيا في بريطانيا، فإن الرمز والمعنى هو الموضوع الذي اجتذب علماء الأنثروبولوجيا في الولايات المتحدة الأمريكية، لا سيما الاتجاه الذي يتزعمه كليفورد جرتز (Clifford Geertz) المعروف بالأنثروبولوجيا الرمزية والتأويلية، والاتجاه الذي يرأسه مارشال سالينز (Marshall Sahlins) الذي يُدعى المادية الثقافية.

ويرى عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي جيمس بوون (James Boon) في كتابه بعنوان: "من الرمزية إلى البنيوية" (From symbolism to structuralism)، "أنه على الرغم من الاختلاف الشاسع بين بنيوية ليفي ستروس وتأويلية جيرتز، حيث يستند الأول على الشكلائية والوضعية بينما يستند الآخر على التاريخانية والتأويلية والتقليد الفلسفي الألماني إلا أنهما يشتركان بحسب بوون في كونهما يتبعان طريقاً مشتركاً في الكشف عن المعاني الرمزية، أي التأويل والتفسير: "لما هو موجود في العقول والقلوب"⁽²⁾.

ورغم ما أبداه كليفورد جرتز من ملحوظات نقدية إزاء بنيوية ليفي ستروس، حيث أشار إلى الغموض الذي يكتنفها، كما أشار إلى قلة الدراسات الميدانية التي قام بها مؤسسها، فإنه أكد في أحد الحوارات التي أجريت معه، اسهام ليفي ستروس في الرقي بالأنثروبولوجيا، قائلاً: "فهو قد استطاع ربطها بالاتجاهات الفكرية العامة والسائدة في العالم. ولقد أخرجها من الميدان الإمبريقي المتمثل في ذلك النوع من العمل الخاص بجمع البيانات، واستطاع في المقابل أن يقحم كبديل عن ذلك ملحوظة من الحركة الفرنسية الفكرية، أي اقحام الحركة الفكرية العامة في الشأن الأنثروبولوجي"⁽³⁾.

1- خليل السعدني، مرجع سبق ذكره، ص 388.

2- نقلا عن: عبد الله عبد الرحمن يتيم- كلود ليفي ستروس قراءة في الفكر الأنثروبولوجي المعاصر- مرجع سبق ذكره- ص 72.

3- عبد الله عبد الرحمن يتيم، دفاتر أنثروبولوجية: سير وحوارات- مرجع سبق ذكره- ص 221.

أما مارشال سالينز فتأثر بالبنوية لما مكث في بارس ما بين عامي 1967 و 1969 م، وحاول التوفيق بين الماركسية والبنوية، وتوصل إلى أن البنى الفوقية كالنسق الرمزي تمارس تأثيراً في البنى التحتية في المجتمعات البسيطة والتقليدية، وفي المجتمعات المتطورة على حد سواء، وأن مهمة عالم الأنثروبولوجيا تكمن في اكتشاف هذا النسق وتحديد معالمه.

ولقد ظهر مارشال سالينز متأثراً بفكرة التبادل عند ليفي ستروس، وعبر عنها في كتابه الموسوم بـ: "العصر الحجري، عصر الوفرة" (Age de pierre, âge d'abondance)، فهو يرى أن "كل قبيلة لا يمكن أن تعيش على الاكتفاء الذاتي لاعتمادها على مبدأ التخصص، مما يعني أنها لا تحتاج إلى كل ما تنتج كل ما هي في حاجة إليه، وهذا يضطرها إلى [الاحتفاظ] ببعض منتجاتها وتصريف أخرى. ولا يتحقق هذا الأمر إلا بفضل التبادل الذي يساعد على تقوية آصرة المحبة والتعاقد بين أفراد القبيلة الواحدة، بل يحقق السلم بين قبائل مختلفة كانت ستلجأ، لولا التبادل، إلى السلب والنهب" (1).

7. خاتمة:

لقد ارتبطت البنوية بمؤسسها الفيلسوف وعالم الأنثروبولوجيا الفرنسي ليفي ستروس، وبالرغم من ظهور ما سمي بالبنوية الجديدة، وظهور مناهج حديثة في العلوم الإنسانية والاجتماعية، كالمناهج السيميائية، والمناهج التفكيكية، والمناهج الأركيولوجية... إلخ، جراء الانتقادات التي وُجّهت إلى مشروع رائدها، فلا يمكن إنكار التأثير الذي مارسه هذا الأخير في مختلف المجالات الفكرية، بدءاً بالأدب والفن، ومروراً بالإنسانيات، ووصولاً إلى العلوم الاجتماعية، ومنها علم الإنسان (الأنثروبولوجيا).

وفي مجال الأنثروبولوجيا تحديداً، لم تؤد أفكار وآراء ليفي ستروس إلى قيام كثير من العلماء الذين ينتمون إلى مختلف الاتجاهات والمدارس النظرية (لاسيما في فرنسا، وبريطانيا، والولايات المتحدة الأمريكية) بإعادة النظر في مناهجهم البحثية فحسب، بل في اختيار موضوعات دراساتهم الأنثروبولوجية أيضاً.

ففي فرنسا مثلاً نجد ليفي ستروس من العلماء قد تأثر ببنوية ليفي ستروس، ومن أهمهم لويس ديمون، وبيير بورديو، وموريس غودليه، وبيير كلاستر، وفراسواز ايريتيه، ولقد وضع هؤلاء العلماء البنوية موضع الاختبار في المجتمعات التي قاموا بدراساتها في إفريقيا، وآسيا، وأمريكا، لأن أعمال رائدها طغت عليها الصبغة الفلسفية التجريدية بصورة عامة.

وفي بريطانيا نجد أيضاً مجموعة من العلماء قد تبنت أفكار ليفي ستروس، وعلى رأسها إدmond ليتش، وماري دوغلاس، ونور يلمان، وروني نيدم، ولقد ساعدتهم ذلك على تجاوز مفاهيم المدرسة البنائية الوظيفية، كمفهوم البناء الاجتماعي على وجه الخصوص، وبحث موضوعات جديدة، كالمحرمات، والدين، والتخوم الاجتماعية والرمزية، ودور اللغة في المجتمع، وعمليات الاتصال والتواصل، وعلاقة الإنسان بالبيئة الطبيعية، والبنى الاجتماعية المعتمدة على الجنس.

كما امتد تأثير ليفي ستروس إلى الولايات المتحدة الأمريكية، بحيث نجد صدى لأفكاره خاصة لدى كليفورد جيرتز زعيم الاتجاه الرمزي التأويلي، ومارشال سالينز الذي زار باريس في أواخر ستينات القرن الماضي؛ وسواء كان التفاعل مع بنيوية ليفي ستروس بالإيجاب أو السلب، فإنه استطاع أن يخلق ديناميكية فكرية في مجال الأنثروبولوجيا، ويدفع بها قُدماً نحو آفاق جديدة.